اسم المادة الدراسية : الأدب العباسي (الشعر).

اسم المادة باللغة الانكليزية : Abbasid Literature of poetry

(المحاضرة الثالثة عشرة)

عنوان المحاضرة : البحتري .

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة

محاضرة ١٣

شعراء العصر الثاني :

البحترى

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد؛ طائىّ الأب شيبانىّ الأم غلب عليه لقب البحترى نسبة إلى عشيرته الطائية بحتر، ولد سنة ٢٠٤ للهجرة بمنبج إلى الشمال الشرقى من حلب على الطريق المؤدية منها إلى الفرات، وقيل: بل ولد بقرية تجاورها تسمّى «زردفنة». واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة، وسرعان ما أخذ يكثر من نظمه فى بعض من عرفهم من عامة أهل بلدته أو كما يقول ابن خلكان من أصحاب البصل والباذنجان، وامتد به طموحه فتجاوز به بلدته إلى بلاد أكبر من حولها، إذ نراه ينزل حلب، وهناك تعرّف على علوة بنت زريقة التى شغفته حبّا، وظلت دار علوة قائمة بحلب، حتى عصر ياقوت إذ يقول: «وفى وسط البلد «حلب» دار علوة صاحبة البحترى». وقد يدل ذلك على يسار الذفافى وأنه شيد لها دارا فخمة. وظلت ذكراها لا تبرح ذاكرة البحترى حتى الأنفاس الأخيرة من حياته. واتسع برحلاته إلى حمص، وكأنما كان السّعد معه على ميعاد، فإذا هو يسمع بأن أبا تمام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم، فعرض عليه شعره، فأقبل عليه، وقال له: أنت أشعر من أنشدنى فكيف حالك، فشكا إليه خلّة، فكتب إلى أهل معرّة النعمان: «يصل كتابى مع الوليد أبى عبادة الطائى وهو على بذاذته"سوء حاله"شاعر فأكرموه» واستقبلوه استقبالا حسنا ووظّفوا له أربعة آلاف .

وكأنما وضع أبو تمام نصب عينى البحترى دستورا قويما لإحسانه صناعة الشعر، بل إن هذا بعض الدستور الذى وضعه؛ إذ لا بد أنه أوصى البحترى وصايا كثيرة حتى يتقن صناعته. وهو فى هذا الجزء من وصاياه ينصحه أن يتخير أوقات إلهامه، ثم يصف له الجودة التى يقوم عليها النسيب والمديح جميعا، مع العناية بدقائق المعانى وجمال الألفاظ والأساليب، ونظن ظنّا أنه حين وجد فى تلميذه حسن الاستجابة، واطمأن إلى أنه شاعر سيكون له شأن، أخذ يعرّفه لا على أهل معرة النعمان فحسب، بل أيضا على ممدوحيه فى حلب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية. وكاد محمد بن يوسف الثغرى بطل حروب بابك قديما وحروب الروم حديثا أن يستخلصه لنفسه، وقد ظل يمدحه ويصف بلاءه فى الثغور حتى توفى سنة ٢٣٦ للهجرة، كان قد ترك زوجته فى منبج وأنجب منها ابنه أبا الغوث فكان كثير الرحلة إلى مسقط رأسه، ويبدو أنه كان يقضى فى وطنه الصيف كله فرارا من حر العراق ولفحه، يقول (١):

نصبّ إلى طيب العراق وحسنها ...ويمنع منها قيظها وحرورها

هى الأرض نهواها إذا طاب فصلها ...ونهرب منها حين يحمى هجيرها

وممن أكثر من مديحهم لعهد المتوكل قائداه عبد الله بن دينار وابنه أحمد، وإبراهيم ابن الحسن بن سهل وله فيه نحو عشر قصائد، وله فى الفتح بن خاقان تسع , ولا يترك نصرا على ثائر إلا ويدوّنه. وكان بطارقة أرمينية خلعوا الطاعة وفتكوا لسنة ٢٣٧ بيوسف بن محمد بن يوسف الثغرى والى إقليمهم، فوجه إليهم المتوكل جيشا سحقهم سحقا وألقوا عن يدوهم صاغرون، ونوّه البحترى بهذا الانتصار طويلا. وكانت قد حدثت فى أواخر العقد الرابع من القرن أو أوائل الخامس حروب دامية بين قبائل ربيعة: تغلب وشيبان وغيرهما، واستطاع الفتح بن خاقان أن يحقن الدماء بينها وأن يردّها إلى الطاعة، ومن الغريب أن لا تعنى كتب التاريخ بهذا الحدث العناية المنتظرة، بينما نرى البحترى يسجلها، وقد بلغ به الأسى أقصاه إذ يرى هذه القبائل المنحدرة من أب وأصل واحد تفقد ما ينبغى أن يكون بينها من البرّ والعطف، فإذا هى تفزع إلى السيف وإلى القوة والقهر وسفك الدماء، يقول :

وفرسان هيجاء تجيش صدورها ...بأحقادها حتى تضيق دروعها

تقتّل من وتر أعزّ نفوسها ...عليها بأيد ما تكاد تطيعها

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ...تذكّرت القربى ففاضت دموعها

شواجر أرماح تقطّع بينهم ...شواجر أرحام ملوم قطوعها

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تطاوعه، والدماء تفيض والدموع تسيل والرماح تقطع علائق الأرحام. وأعاد المتوكل ووزيره الفتح الأمر إلى نصابه من الأمن والسلم، فأغمدت السيوف وقرّت القلوب الخافقة ونامت العيون المسهّدة. ويثب أهل حمص بعاملهم لسنة ٢٤٠ ويعودون إلى الوثوب والثورة فى سنة ٢٤١ وينكل وكان قد رفع المحنة التى أنزلها أبوه بالعلويين ودفع الأذى عنهم والتعرض لشبعتهم، فأشار إلى ذلك البحترى منشدا :

وآل أبى طالب بعد ما ...أذيع بسربهم فابذعر

ونالت أدانيهم جفوة ...تكاد السماء لها تنفطر

وصلت شوابك أرحامهم ...وقد أوشك الحبل أن ينبتر

ويتوفّى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته ويخلفه المستعين فيستبقى ابن الخصيب فى الوزارة، وسرعان ما يغضب عليه قواد الترك فتستصفى أمواله وينفى إلى جزيرة إقريطش (كريت) وحينئذ نجد البحترى يتنكّر له، ويبالغ فى تنكره إرضاء للمستعين وقواده، فيؤلبهم عليه، ويحثهم–كما مرّ بنا فى الفصل الماضى– على قتله قائلا :

لابن الخصيب الويل كيف انبرى ...بإفكه المردى وإبطاله

وهو جانب فى البحترى لاحظه بعض معاصريه–كما مرّ فى غير هذا الموضع–إذ تحدثوا عن كفره للإحسان وعدم وفائه، حين يقلب الدهر مجنّه لبعض ممدوحيه أو حين يسبق إليهم الموت، فإنه بدلا من أن يثير ذلك فى نفسه ضروبا من الشفقة والرحمة، يسارع إلى الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء ما فى أيديهم من المال والنفع، ويضرب القدماء لذلك مثلا موقفه من الخليفة المستعين إذ كان يمدحه، وينال جوائزه حتى إذا خلعه قواد الترك وتولى المعتز الذى يرتجى نفعه أسرع إليه بقصيدة يمدحه فيها ويهجو المستعين هجاء مقذعا بمثل قوله :

أمرتجع منى حباء خلائف ...توليت تسيير المديح لهم وحدى

تصور جزعه المفرط، ويتوفّى عبيد الله سنة ٢٦٣ ويخلفه الحسن بن مخلد، فيمدحه بقصائد مختلفة شاكيا ضارعا، فيجعل أمره إلى كاتبه السّيبى، ولا يسارع إلى استرضائه، فيشكوه إلى ابن مخلد بحائيته :

لك الخلائق فينا السهلة السّمح ...والنّيل يسلس للرّاجى وينسرح

ولا يكاد يسمعها الحسن حتى يبلغ بالبحترى ما يريد، ويزيل المطالبة عنه.

ويلحّ على ابن بلبل فى قصائد كثيرة أن يأذن له بالرحيل إلى موطنه بمثل قوله :

وأعتقت الرّقاب فمر بعتقى ...إلى بلدى وأنت به جدير

وكان البحترى يأخذ بحظوظ مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية فى عصره، وليس معنى ذلك أنه تخصص فى أحد فروعها، ولكنه كان يلم بها، إذ كانت حلقاتها مفتوحة للصادر والوارد فى جميع أنحاء العالم العربى حينئذ، ويرمز إلى ذلك فى شعره أننا نراه فيه يعرض لبعض اصطلاحات علم الحديث، إذ يقول فى مديحه لإبراهيم بن الحسن بن سهل :

خلق أتيت بفضله وسنائه ...طبعا فجاء كأنه مصنوع

وحديث مجد عنك أفرط حسنه ...حتى ظننّا أنه موضوع

وكانت قد أخذت تتكوّن فى النقد والبلاغة–كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع–ثلاث بيئات: بيئة محافظة مسرفة فى المحافظة ترى أن الشعر ينبغى ألا يقاس إلا بالمقاييس العربية الخالصة، وهى بيئة اللغويين، وبيئة مجددة مسرفة فى التجديد ترى أن يقاس الشعر بمقاييس البلاغة اليونانية، وهى بيئة المتفلسفة، ممن كانوا يترجمون عن اليونان أو يقرءون ما ترجم عنهم، وبيئة معتدلة، فهى لا تحافظ محافظة اللغويين ولا تجدد تجديد المتفلسفة، بل تقف موقفا وسطا، فهى تقرأ ما يترجم وهى تنظر فيما أثر عن العرب من ملاحظات بلاغية، ثم تحاول أن تنفذ من ذلك إلى مقاييس للبلاغة العربية تزنها موازين دقيقة، وهى بيئة المتكلمين، على نحو ما نعرف عن الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين، وانحاز الشعراء غالبا إلى البيئتين المحافظة والمعتدلة، وقلما انحاز أحد منهم إلى البيئة الثالثة وكانت قد ساءت العلاقة بين البحترى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد، ونظن ذلك حدث فى بعض فترات عزله عن وظيفته، وسارع البحترى فلمّح إليه فى بعض شعره بما يشبه الذم، وردّ عليه عبيد الله يمدّه صديقه ابن الرومى بأشعار ملتهبة، ويبدو أنهما ندّدا بضعف ثقافة البحترى وأنه لا يعرف فلسفة ولا منطقا، مما جعله يهجو عبيد الله ببائية يقول فيها:

كلّفتمونا حدود منطقكم ...والشعر يغنى عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بال ...منطق ما نوعه وما سببه

والشّعز لمح تكفى إشارته ...وليس بالهذر طوّلت خطبه

والمديح أهم موضوع استنفد شعر البحترى ينتصر للعباسيين ضد خصومهم العلويين، وأن يتغنى بذلك فى أشعاره، حتى يثبت ولاءه لهم وأنه يقف فى صفوفهم مدافعا عنهم مناضلا بمثل قوله للمتوكل :

شرفا بنى العباس إن أباكم ...عمّ النبىّ وعيصه المتفرّع
إن الفضيلة للذى استسقى به ...عمر وشفّع إذ غدا يستشفع
وأرى الخلافة وهى أعظم رتبة ...حقّا لكم ووراثة ما تنزع
أعطاكموها الله عن علم بكم ...والله يعطى من يشاء ويمنع

ويتحدث عن جلال الموكب وما استدار حول المتوكل من هالات قدسية ومن محبة للشعب وإعظام، يقول :

افتنّ فيك الناظرون فإصبع ...يومى إليك بها وعين تنظر
يجدون رويتك التى فازوا بها ...من أنعم الله التى لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبىّ فهلّلوا ...لما طلعت من الصفوف وكبّروا
حتى انتهيت إلى المصلّى لابسا ...نور الهدى يبدو عليك ويظهر
فلو انّ مشتاقا تكلف فوق ما ...فى وسعه لسعى إليك المنبر

ولعل أهم وزير استصفاه لنفسه الفتح بن خاقان، فله ألف ديوانه الحماسة، وقد عاش نحو خمسة عشر عاما يمدحه منوها بسياسته وحزمه وشجاعته وأناته فى تسديد الأمور، وعونه للضعيف ورده للمظالم ونشره للعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وبعد غوره ويقظته وكفايته لحمل أمانة الحكم على خير وجه ممكن، مع تقواه وتواضعه ومع صيانته للثغور وحطمه بجيوشه للثوار والأعداء حطما لا يبقى ولا يذر، ومع أخلاقه الرفيعة التى تتحلّى بها نفسه الأبية، وكان ربما بدر منه ما يجعل الفتح ينصرف عنه. فكان يعتذر له بأشعار رائعة، سبق أن صورناها فى الفصل الماضى. ومديحه

ولعل فى تسجيل البحترى لها ما يؤكد ما قلناه مرارا من أن شعر المديح عند العرب يعدّ فى بعض جوانبه وثائق تاريخية مهمة، وفيها يقول البحترى مصورا زحف ابن دينار بمركبه «الميمون» ومن حوله المراكب تغص بجنوده البحريين الذين محقوا الأسطول البيزنطى وجنوده محقّا :

غدوت على الميمون صبحا وإنما ...غدا المركب الميمون تحت المظفّر

وحولك ركّابون للهول عاقروا ...كئوس الردى من دارعين وحسّر

صدمت بهم صهب العثانين دونهم ...ضراب كإيقاد اللّظى المتسعّر

يسوقون أسطولا كأن سفينه ...سحائب صيف من جهام وممطر

فما رمت حتى أجلت الحرب عن طلّى ...مقطّعة فيهم وهام مطيّر

مشتعلة بين جوانحه، وظل يصدر عنها فى قطع مفردة وفى مقدمات مدائحه من مثل قوله:

وخلاف الجميل قولك للذّا ...كر عهد الأحباب صبرا جميلا

لا تلمه على مواصلة الدّمـ ...ـع فلؤم لؤم الخليل الخليلا

على ماء الدموع يخمد نارا ...من جوى الحبّ أو يبلّ غليلا

وكانت لدى البحترى قدرة بارعة فى وصف مظاهر العمران، بما أتيح له من دقة فى التصوير والتعبير، ولم يكد يترك قصرا بناه المتوكل دون أن يصفه موجزا أو مسهبا، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور. ومرّ بنا وصفه الرائع لإيوان كسرى، ومن القصور التى أجاد فى وصفها قصر الكامل الذى بناه المعتز وفيه يقول :

ذعر الحمام وقد ترنّم فوقه ...من منظر خطر المزلّة هائل

رفعت لمنخرق الرّياح سموكه ...وزهت عجائب حسنه المتخايل

وكأن حيطان الزجاج بجوّه ...لجج يمجن على جنوب سواحل

لبست من الذهب الصقيل سقوفه ...نورا يضئ على الظلام الحافل

وقد مضى يصف رخامه وخطوطه المتقابلة وما امتد أمامه من بستان أنيق وما يجرى فيه من مياه دجلة المفضضة ومن نسيم الصّبا الحانى. وكان القدماء يعجبون أشد الإعجاب بوصفه لبركة أقامها المتوكل بأحد قصوره فكانت فتنة للناظرين، وفيها يقول البحترى:

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها ...والآنسات إذا لاحت مغانيها

تنصب فيها وفود الماء معجلة ...كالخيل خارجة من حبل مجريها

كأنما الفضّة البيضاء سائلة ...من السبائك تجرى فى مجاريها

فرونق الشمس أحيانا يضاحكها ...وريّق الغيث أحيانا يباكيها

إذا النجوم تراءت فى جوانبها ...ليلا حسبت سماء ركّبت فيها

المصادر والمراجع:

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- الادب العربي في العصر العباسي : د. ناظم رشيد ، دار الكتب الوطنية – العراق ، ١٩٩٠.
- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار ، دار المعارف – الاسكندرية ، (د.ت.)
- تاريخ الأدب العربي : د.عمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١.
- ديوان الشاعر المتنبي .
- ديوان الشاعر ابي تمام .
- ديوان الشاعر البحتري .
- ديوان الشاعر ابي نواس .
- ديوان الشاعر العباس بن الاحنف .
- ديوان الشاعر الشريف الرضي .
- ديوان الشاعر بشار بن برد .
- ديوان الشاعر ابن الرومي .